منعطف.. على طريق البناء

إن الضميمة التي هي توأم الحديث عن الكلمة الطيبة في المثل المضروب في سورة إبراهيم، هي ما كنا أشرنا إليه فيما سلف من القول من أن الإنسان هو المؤهل لأن يضع حق «لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه» بكل مقتضياته وأبعاده موضع التنفيذ في نفسه وفي مجتمعه وأمته.

ومن أجل ذلك ـ واللَّه أعلم ـ شبه رسول اللَّه ﷺ الشجرة الطيبة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وهي النخلة ـ كما صحت الرواية عنه ـ بالمؤمن، وكان ما كان من سؤاله الصحابة عن ذلك.

وإذا توافر لدينا الحرص على أن نتمرد على واقع التخلف والضعف، وأن نحسن الانطلاق في ساحات البناء المتكامل المتوازن، والإفادة من خيرات وإمكانات مادية وبشرية أعطاها اللَّه لهذه الأمة.. إذا توافر لدينا هذا الحرص كان لزماً أن نصوغ الفرد والجماعة على الكلمة الطيبة والقيام لكل ما هو حق الإسلام في لا إله إلا اللَّه. محمد رسول اللَّه وكان ذلك أخذاً من قوله عليه الصلاة والسلام كما روى البخاري: «**فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على اللَّه**». والكلمة التي ألقاها إمام المعلمين والمربين عليه الصلاة والسلام سؤالاً عن الشجرة الطيبة التي تشبه المؤمن، كانت صورة من صور عنايته ببناء أولئك الذين يؤهلهم لحمل رسالة البناء في ظل كلمة التوحيد «لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه». تلك الكلمة التي كانت تعني تحولاً جذرياً في حياتهم وتصوراتهم. نعم ولقد أراد صلوات اللَّه وسلامه عليه أن تكون هذه الكلمة عنوان تحول جذري لا في أعماق الإنسان فحسب، ولكن في منهج الحياة بكامله ـ كما هي طبيعة الرسالة ـ فالمعبود بحق هو اللَّه، وهو جل وعلا

قد تعبّد عباده بما شرع لهم ونظم حياتهم بما يسعد في الدنيا والآخرة.. وذلكم هو حق» لا إله إلا اللّه.. أن تكون شرعة اللّه الذي لا معبود بحق سواه: هي منهج حياة الناس.

ولقد كان من آثار ذلك ما رأينا من بناء المجتمع الإسلامي اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وسلوكياً على أكمل الوجوه، وما شهد التاريخ من حركة إيمانية أيقظت الغافلين، وجدّدت العزائم، وعملت على تنمية كل الفاعليات والقدرات، وكان ذلك كله روافد خيّرة على طريق البناء الحضاري الذي أراده الإسلام.

ومن النماذج التي كانت منعطفاً نيِّر الدلالة في تاريخنا بالغ الأثر في أن تكون للأمة استقلاليتها وذاتيتها على دروب البناء الذي يمتد إلى هنا وهناك ولا تستثن: موقف أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه من مانعي الزكاة، حيث أبان وهو يتولى مسؤولية الأمة في مواجهة تحديات المرتدين، واحتمالات الانقضاض في الصرح الشامخ العظيم.. أبان أن حق «لا إله إلا اللّه ـ وهو حق الإسلام ـ ليس كلمات لا تتجاوز اللسان، واقتصاراً على أداء الصلاة، ولكن التزام بكل ما أمر اللّه: فمن حق «لا إله إلا اللّه»: أن تؤدى الزكاة التي هي أهم ركيزة من ركائز التكامل الاجتماعي وضمان المجتمع المسلم.

وفي ضوء هذه الحقيقة: قال رضي اللّه عنه: «**واللّه لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول لله ﷺ لقاتلتهم عليه**» .

العلاقة بين مثل الكلمة الطيبة.. وآية البر

ما هدانا إليه المعلم القرآني في ظل المثل القرآني للكلمة الطيبة كلمة التوحيد، وأن حقها هو حق الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده منهج حياة يضمن لهم خير الدنيا والسعادة يوم الدين.

ما هدانا إليه هذا المعلم الكريم يقفنا على بعض من وجوه الحكمة من إيراد القرآن الكريم ـ وهو يبين حقيقة البر ـ لأمور تتعلق بالإيمان، وأخرى بأركان الإسلام، مضموماً إليها نماذج من الأخلاق، ومظاهر السلوك، على صعيد الفرد، والجماعة، وما ينبغي أن يكون سمة المجتمع الذي ينشد الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي.

كالذي نرى في الآية السابعة والسبعين بعد المائة من سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[البقرة: ١٧٧].

ومعلوم أن البر هو الإيمان، بل هو الكلمة الجامعة لكل صنوف الخير. ولقد كان من سبب نزول هذه الآية الكريمة: أن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه في صلاتهم إلى بيت المقدس، ثم حوّلهم إلى الكعبة يتوجهون شطرها عند أداء هذه العبادة ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[البقرة: ١٥٠] لما حصل ذلك شق الأمر على بعض المسلمين وأثار استغلال اليهود لهذه القضية في محاولة التشكيك وزعزعة القلوب، وذلك ما أشارت إليه آية أخرى من

سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾[البقرة:١٤٢].

وكان نزول آية البر بياناً لحكمة اللّه تبارك وتعالى فيما يشرع لعباده، وأن المراد طاعة اللّه عز وجل، وامتثال أمره، والتوجه حيثما وجّه، واتباع ما شرع، فهؤلاء العباد المكلفون: عباده والكون بجهاته وكل ما فيه: ملكه سبحانه وتعالى؛ وذلكم هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليست القضية قضية توجهٍ إلى جهة من الجهات مبتورٍ عن أمر اللّه تعالى.

والذي يستوقف الناقد البصير: أن الآية تجاوزت ظاهر التوجه إلى جهة من الجهات، لتعطي التعريف الكامل للبر بسعته وشموله ـ كما أسلفنا ـ ميادين حركة الإنسان وبناء المجتمع. وكان هذا التعريف من الوضوح بحيث أُبعد التوجه الذي لا يرتبط بأمر اللّه عن أن يكون هو البر وذلكم ما أعلنه قوله تعالى:﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾[البقرة:١٧٧] ثم جاء البيان الواضح الشافي للبر وكثير من ميادينه فقال جل وعلا:﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[البقرة: ١٧٧] الآية. فالبرُّ برٌّ من استوفى هذه الكلمات في العقيدة والأخلاق والسلوك.

وإلى لقاء قريب نسعد فيه بدلالة المعلم القرآني من خلال إعطاء هذه الآية الجامعة إن شاء اللّه.

البناء.. وسبب نزول آية البر

تشبيه رسول اللّه ﷺ المؤمن بالنخلة من حيث تعدد وجوه العطاء وكونُه العطاء الخير النافع ـ كما أسلفنا من قريب ـ هذا التشبيه نقلنا في ظلِّ المعلم القرآني الذي مثَّل الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة.. إلى آية البر وهي الآية السابعة والسبعون بعد المائة من سورة البقرة. وقد علمنا أن هذه الآية الجامعة نزلت بياناً لحكمة اللّه تعالى في أمر المسلمين بالتحول عن التوجه إلى بيت المقدس في الصلاة والتوجه شطر المسجد الحرام، بعد أن ظل رسول اللّه والمسلمون يتوجهون إلى بيت المقدس ـ بأمر اللّه ـ بضعة عشر شهراً.

والإجمال الذي ألمحنا إليه في معنى الآية خلال كلمات سلفت: لا يغني عن التنبيه على ما يزيدنا صلة بها، ولا سيما إذا نظرنا إليها من خلال الواقع، تصحبنا واحدة من البدهيات عند المنصفين، عمادها أن تبين الطريق في ضوء معالم الكتاب العزيز، هو ما ينبغي أن يكون نقطة البدء، والمنطلق الحقيقي لسلامة البناء الذي تتطلّع إليه الأمة على صعيد الفرد والمجتمع.

فطائفة من أهل الكتاب ـ واليهود منهم بخاصة ـ بحكم وجودهم في المدينة المنورة، وما شاءت نفوسهم من الغل، وأصاب قلوبهم من الحقد على رسول اللّه ﷺ والمسلمين: لما رأوا من انتصارات الدعوة الجديدة، في كل الميادين.. هؤلاء الأناسي شرعوا يقولون: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، والمهم أن يتوجه المصلي إلى جهة من الجهات ووجدوها فرصة سانحة للدّس ومحاولة إدخال الريبة على ضعفاء النفوس.

والتعرف إلى هذه النقطة التي كانت سبب نزول الآية وحجمها على مسيرة البناء، حين كان رسول اللّه ﷺ ينشئ مجتمع المدينة إنشاءً يستوعب ـ في ظل دعوة الإسلام ـ كل مقومات المجتمع القوي النظيف.. أقول: التعرف إلى هذه النقطة يزيد

من وضوح الرؤية اليوم في علاقة أمتنا باليهود؛ فما يشاهد من استخدامهم الدس والاصطياد في الماء العكر، سلاحاً من أسلحة المعركة في مواجهة الإسلام والمسلمين، وما يلاحظ أنهم ـ في الغالب ـ وراء جراثيم الفكر القاتل من الشرق أو الغرب، ووراء الفتن العمياء هنا وهناك.. ما يلاحظ من ذلك كله ـ وغيره كثير ـ هو امتداد طبيعي كما يعطي المعلم القرآني لما كانوا يصنعونه في عصر النبوة يومذاك، ومهمة البناء اليوم، وهي تهدف إلى إرساء القواعد التي تمكن المجتمعات الإسلامية من الوقوف في وجه التحديات بقدرة ثقافية واجتماعية واقتصادية، وتعين على تنمية القدرة الذاتية للأمة كيما تحرر النفوس وما اغتصب من الأرض.. هذه المهمة الصعبة لا بد أن يصحبها وضوح الرؤية الذي ألمحنا إليه بشأن اليهود ومن هم على شاكلتهم، وذلك قليل من كثير مما تعطيه آية البر من حيث سبب النزول والملابسات المحيطة بما حدث. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

رحلة البناء.. ووضوح الرؤية

فيما رأينا من قريب من عطاء المعلم القرآني على هدي سبب النزول في آية البر من سورة البقرة، حقيقة من الضرورة بمكان أن نحسن التعامل معها، وهي أن أعداء هذه الأمة لها دائماً بالمرصاد؛ فهم لا يفوتون فرصة تمكنهم من الدس والافتراء من أجل خلخلة الصف وبعثرة الجهود، إلا اغتنموها بحقد وخبث بالغين.

ففي عدوان على هدي النبوة، وخلايا المجتمع تعمل عملها على كل صعيد، تعفيةً على آثار الجاهلية، وبناءً سليم القواعد متين الأسس في كل ميدان: يدس اليهود أنوفهم بمسألة تحويل القبلة ويقولون لبعضٍ من أهل الكتاب الآخرين: ما ولّى المسلمين عن قبلتهم التي كانوا عليها، فالمهم تولية الوجوه قبل المشرق والمغرب وذلك هو البر وكفى. ونزل فيما نزل وضعاً للحق في نصابه وتثبيتاً للمؤمنين على الحق الذي يقوم على حسن الامتثال لرب العالمين الذي له جل وعلا المشرق والمغرب ونواصي العباد بيده سبحانه.. نزل فيما نزل على رسول اللَّه ﷺ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقد عملت الكلمة القرآنية عملها في إيضاح الرؤية كيما تسلم للمسلمين رحلة البناء التي من بعض متطلباتها: طمأنينة المسلم بالحق واستقراره النفسي، ووثوقه العميق بأن ما يأتي به اللَّه هو الخير، وأن حكمة اللَّه بالغة، بالغة حين أمر المسلمين بالتوجه إلى بيت المقدس، وبالغة حين أمرهم بالتحول إلى الكعبة كما جاء في قوله تعالى في سورة البقرة نفسها خطاباً للنبي ﷺ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة: ١٤٤].

والجديد هنا ما تكشف عنه هذه الآية من أن اليهود الذين أنكروا استقبال المسلمين الكعبة وانصرافهم عن بيت المقدس: يعلمون من كتبهم عن أنبيائهم أن اللّه تعالى سيوجه نبيه محمداً ﷺ إلى المسجد الحرام بعد بضعة عشر شهراً من توجهه إلى بيت المقدس في المدينة وكل ذلك بأمره وحكمته سبحانه.

هكذا يكتمون الحقيقة، ويخترعون الأباطيل ويعملون على خلخلة الصفوف، والتمزيق الفكري للشمل. وذلك ديدنهم مع الأمة المحمدية منذ البعثة وحتى يوم الناس هذا. وكل أولئك بعض صنيعهم على هذا الخط العفن، وإذا ذكرنا من خلال الواقع كم لصنيعهم هذا من انعكاسات على الواقع الاقتصادي، والواقع السياسي والعسكري في دنيا المسلمين ناهيك عن واقع الفكر والثقافة.. إذا ذكرنا ذلك أدركنا ضرورة التبين والحذر البالغين عندما يكون وراء الأكمة ما وراءها، كيما يكون حملة الأمانة في رحلة البناء والنماء على بينة من أمرهم يتابعون الرحلة واثقين مطمئنين. قادرين على توظيف الهداية القرآنية حيث يجب أن تكون، خصوصاً وأن معاركنا مع اليهود وكل من هم على شاكلة اليهود: معارك متعددة الوجوه متشعبة الميادين. وما النصر إلا من عند اللّه العزيز الحكيم.